شبابه صلى الله عليه وسلم

خطبة الدكتور محمد توفيق رمضان البوطي

بتاريخ 17 / 11 / 2017

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد فيا أيُّها المسلمون؛ يقول ربنا سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ وقال سبحانه في وصف النبي ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وقال: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾، وروى البخاري عن النبي ﷺ أنه قال: (بشروا خديجة ببيت من قصب لا صخب فيه ولا نصب)، وقال: (خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة)، وقال فيما رواه البخاري أيضا في حقها رضي الله عنها: (إني قد رُزقت حبها).

أيُّها المسلمون؛ نقف اليوم أمام مشاهد من سيرة النبي ﷺ تُظهر الجانب المتميز مِن إنسانيته وسموه عليه الصلاة والسلام، فقد كانت السيدة خديجة رضي الله عنها مِن أشرف نساء قريش، وكانت تستأجر الرجال للمتاجرة بمالها، فلما سمعت بأخلاق النبي ﷺ وصدقه وأمانته؛ أرسلت تعرض عليه أن يتاجر بمالها في الشام وتعطيه خير ما تعطي غيره، فرضي ﷺ وأرسلت معه غلامها ميسرة ليساعده في عمله، فوفقه الله في رحلته تلك، وعاد منها بأرباح مضاعفة، وسمعت خديجة من ميسرة عن أخلاق النبي ﷺ وخصائصه ما جعلها تُدهش بذلك، فأرسلت من يعرض عليه الزواج منها، وهي التي كانت تكبره بخمسة عشر عامًا، وكانت قد ترملت قبله من زوجين، فرضي النبي ﷺ وعقد قرانه ﷺ عليها، وعاشت معه خمسة وعشرين عامًا لم يشاركها فيه زوجة أخرى، على الرغم من أن التعدد والزواج بأخريات كان أمرًا شائعًا بين الناس آن ذاك، ..... على الحق مع ثباته إلى أواخر العهد المكي حيث توفيت في أشد ظروف حياة النبي ﷺ الدعوية بعد أن كانت تقف إلى جانبه تشد من أزره وتواسيه وتؤيده في جهاده، نعم، تؤيده في جهاده بجهادها معه، وهي التي قالت له يوم نزل عليه الوحي في حراء وقد استبدت به رهبة الوحي وعاد إليها يرتجف فؤاده، قال ﷺ: (والله لقد خشيت على نفسي)، فأجابت بكل رصانة وبعد نظر وعقل وإنصاف: (كلا لا يخزيك الله أبدا، فوالله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق

وإنسان هذا شأنه لن يخزيه الله عز وجل أبداً)، هذه نظرة السيدة خديجة رض الله عنها في النبي ﷺ، ثم مضت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان ذا علم بالكتب السماوية وكان قد تنصر ورفض الشرك وخرافاته وتُرهاته، فلما قصَّ على ورقة ابن نوفل ما قد جرى معه قال له: (هذا الناموس الذي أنزل على موسى –أي هذا الوحي وجبريل الذي نزل على موسى_ ليتني فيها جذعًا– شابا قويًا– إذ يخرجك قومك، قال: أوَ مخرجي هم؟ قال: قال: أجل، لم يأت رجل بما جئت به إلا أوذي، وإن يدركني يومك حيًا لأنصرنَّك نصرًا مُؤزرًا)، اتضحت الرؤيا أمام سيدتنا خديجة بما يؤكد فهمها وبعد نظرها في معنى ابتلاء الله تعالى للإنسان ومعنى ما جرى للنبي ﷺ من ذلك، هذا مشهد والمشهد الآخر: مشاركته ﷺ قريشًا في بناء الكعبة، إذ تعرضت مكة لسيل جارفٍ أوهن بناء الكعبة وتصدعت جدرانها فرأوا أن يعيدوا بناءها، وخصصوا لذلك أطيب مالهم؛ لأن شرف الكعبة لا يليق به أن يوضع كل مال في بنائه، فبنيت الكعبة، وكان من أشدهم نشاطًا وعملًا محمد ﷺ، يحمل الحجارة معهم ويقوم معهم بنشاطهم في بناء الكعبة حتى اكتمل بناؤها، ويومها جرى أمر كاد يعصف بمكة وأهلها، إذ اختلف زعماء القبائل من يحظى بشرف إعادة الحجر الأسود إلى مكانه، واشتد النزاع فيما بينهم حتى كادت تقوم الحرب فيما بينهم من أجل هذا الأمر، ثم وجدوا أن يحتكموا إلى أول داخل عليهم، فكان أول داخل عليهم محمد ﷺ وقالوا: هذا الأمين، وارتضوه حكمًا فيما بينهم ينهي خصومتهم ويفصل فيما بينهم فرضي النبي ﷺ ووضع ثوبه الشريف على الأرض ثم وضع الحجر عليه ثم أمر زعماء القبائل أن يحمل كل منهم من طرف الثوب ثم يمضوا بالحجر إلى الكعبة المشرفة حيث أعاده النبي ﷺ إلى مكانه، هذه الحكمة التي أوتيها النبي ﷺ كانت لها دلالتها في أن النبي ﷺ لم يكن مجرد عبقري أو ذكي ذا تميُّز في بُعد نظره، وإنما كان إشارة إلى مزيد من الصفات التي حفظوها عنه ﷺ فهو الأمين والحصيف وهو الذي يمكن أن يُلتجأ إليه في الملمات لأمانته وبعد نظره الذي خصَّه الله ﷻ به، بهذا عرف فيما بينهم فكان ذلك إعداد لنفوسهم لتقبُل كلمة الحق التي سيصدع بها فيما بينهم،.

أيها المسلمون؛ عندما نتأمل مسألة تجارة النبي ﷺ نؤكد بذلك حرصه عليه الصلاة والسلام على كسب الرزق بكد يمينه، وأن يعمل وان لا يكون عالة على غيره، وهذا هو شأن النبي ﷺ يكد بيمينه ويسعى بنفسه، عمل في رعي الأغنام، وعمل في كل مكان شريف طاهر يكسب فيه الرزق، وكان فيما عمل أن رضي أن يتاجر بمال السيدة خديجة رضي الله عنها ما أظهر سمو صفاته لها رضي الله

تعالى عنها، فهي استمرار لحياة الكد والعمل في كسب الرزق والتي هي شأن الإنسان المسلم الذي ينبغي أن يكون حريصا على أن يكون كسبه من كد يمينه.

الأمر الثاني: زواج النبي ﷺ، والنبي ﷺ من أشرف بيوتات مكة هو من بني هاشم، وبنو هاشم لهم صدر المكانة في قريش وأرفع المنزلة فيها، فأن يتزوج امرأة شريفة طاهرة، لكنها قد ترملت مِن قبله مرتين، تكبره خمسة عشر عامًا لا يميزها على غيرها سوى حصافة رأيها وشرف مكانتها وطهر ثوبها وسمعتها في مجتمع شاعت فيه أوضار الجاهلية وانحرافاتها، فوجد أنها خير من يمكن أن تكون زوجة له في ذلك المجتمع الجاهلي الذي قد انتشرت فيه أوضار وعادات الجاهلية القذرة، فارتضاها زوجة له، وعلى الرغم من انتشار وشيوع مسألة الزواج بأكثر من زوجة؛ بل هناك من تزوج خمس وست وعشرا، إلا أن النبي ﷺ لم يضم إلى السيدة خديجة غيرها طيلة خمس وعشرين عامًا حتى بلغ الخمسين من عمره توفيت السيدة خديجة رضي الله تعالى عنها، وهي التي كانت تُسرِّي عنه وتخفف عنه ألمه وتزيد من ألمه، وتزيد من عزيمته وتعينه على صبره على شدائد الطريق وتثبت قلبه مع ما كان قد أيده الله ﷻ به فكانت خديجة ض مظهر من مظاهر تأييد الله تعالى له وتثبيت قلبه في المواقف الجليلة، هذا معنى يتجلى من خلال ما ذكرنا يوم نزل عليه الوحي فمضت به إلى ابن عمها لكي تضح الرؤية لديها، أما النبي ﷺ فكانت الرؤية واضحة، إلا أن هيبة الوحي قد أخذت بمجامع قلبه وهيمنت على مشاعره.

الأمر الثالث: قضية بناء الكعبة، وكيف أن النبي ﷺ كان يشارك أهل مكة في فضائل أعمالهم، وكان معهم بل يتقدمهم، وكل مشروع راق سام إيجابي له فوائده وله فضائله؛ كان النبي ﷺ من أول المبادرين إليه، وهذا يتجلى من خلال مشاركتهم في بناء الكعبة المشرفة مشاركة فعَّالة، ويتجلى أيضًا من خلال مشاركتهم يوم عقدوا حلف الفضول لنصرة الضعيف والأخذ على يد الظالم كمعاهدة فيما بين القبائل التي كانت قد اتفقت على هذا الأمر الفاضح الذي يُعد حلًا لمشكلات النزاعات والخلافات فيما بين القبائل، ويقول النبي ﷺ: «لو دُعيت إليه في الإسلام لأجبت».

هذا هو النبي ﷺ قبل نبوته، كانت أخلاقه وصفاته تعده وتهيء الأذهان لخصوصيات قد تميز بها عليه الصلاة والسلام، ليكون حجة عليهم لا يجدون في سيرته ولا في أخلاقه ولا في تصرفاته إلا ما يرفع من شأنه ويزيدهم تقديرًا وإجلالًا لمكانته.

أسأل الله أن يرزقنا حسن الخلق اقتفاءً لهدي النبي ﷺ وأن يرزقنا حب النبي ﷺ حتى نحسن الاتباع والاقتفاء لأثره الشريف